المبحث الثاني: تعريف النّهضة وعوامل قيامها

تمهيد

مفهوم النهضة الأوربية

أصول النهضة الأوربية

عوامل قيام النهضة الأوربية

1-أثر الحضارة العربية الإسلامية

2- ظهور المدن

3 - انتقال بعض علماء القسطنطينية إلى إيطاليا

4- اختراع الطباعة

5- انحلال البابوية وضعف الكنيسة

6- ظهور المفكرين

7- الاستقرار السياسي والسلام

تفسير أسبقية إيطاليا في عملية النّهضة

خلاصة

تمهيد:

لا نستطيع الحكم على العصر الوسيط – في أوربا- بالانحطاط أو كما يقولون عصر الظلمات بدليل أنه كان أرضية لعصر النّهضة، وأن هذا العصر مما ظهر إلا بعد أن ظهرت بعض المظاهر الحضارية أواخر العصر الوسيط وتشابك ظروف وعوامل أخرى مؤثرة. ولعلّ هذا ما يفرض علينا الإجابة على إشكالية أساسية في هذا المبحث: ما هي الأصول الأولى للنهضة. وما هي العوامل السابقة واللاحقة المساهمة في ظهورها؟

مفهوم النهضة الأوربية:

تعرف بحركة التجديد والبعث والإحياء للحضارة القديمة اليونانية واللاتينية، كما توصف بتلك التحولات العميقة التي حدثت في أوربا في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية و العلمية()كما تعرف بتلك التغيرات الكبيرة التي طرأت على المجتمع الأوربي في الفترة الواقعة بين العصور الوسطى والعصر الحديث أي بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، ويذهب البعض في وصفها بأنها حركة إحياء الدراسات القديمة وظهور الفكر العقلاني، وقد ظهرت في إيطاليا قبل غيرها ثم انتقلت إلى البلاد الأ وربية الأخرى. ()

ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه لا يجوز تحديد سنة معينة لظهور النهضة، وإنما التركيز يكون بإبراز التيارات الحضارية الجديدة التي شهدتها أوروبا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ثقافيا وسياسيا واقتصاديا ودينيا، والتي تبلورت حتى غدت في شكل نهضة شاملة في القرن الثاني عشر، وعلى هذا الأساس

منحوا تعريفا للنهضة يتناسب مع هذا التوجه بقولهم: إنها تلك التغيرات الحضارية والتطورات الفكرية التي عرفتها أوروبا أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين ().وفي الواقع فإن الرجوع بـ النهضة الأوربية في مفهومها التاريخي ومدلولها الحضاري إلى القرن الثاني عشر شيء فيه نوع من المبالغة، لأ ن النهضة الأوربيةلم تتبلور ملامحها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والدينية إلا باستهلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

بقيت الإشارة إلى أن النهضة في أوربا ارتبطت أساسا بإحياء العلوم الإنسانية القديمة المتعلقة بحياة الإنسان في المجالات الأدبية والفنية وحتى العلمية اقتداء بعلماء اليونان والرومان حتى أطلق عليها بالحركة الإ نسانية.()

أصول النهضة الأوربية:

يكاد يجمع المؤرخون على أن نهضة القرن الخامس عشر لم تأخذ شكلها الحقيقي إلا بعد مراحل؛ فذهب بعضهم إلى أن العصر الحديث بمظاهره المختلفة ظهر بشكل تدريجي، واستمر فيه هذا التدرج حوالي ستة قرون ما بين القرنين العاشر والخامس عشر()وقال آخرون إن فترة التدرج هذه كانت بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر وكان ذلك عبر مراحل بدءا بطور الظهور الذي كان بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ثم مرحلة النمو والتطور والازدهار التي كانت خلال القرون: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر()، وقد أوجز البعض في هذه المسألة بقوله إن مرحلة الانتقال الأساسية بين العصر الوسيط والعصر الحديث والتي كانت تمثلها النهضة إنما كانت خلال القرن الرابع عشر()والتي نمت وتبلورت في القرن الخامس عشر.()

ويرى مؤرخون آخرون بأن ميلاد عصر النهضة يقاس بالمظاهر الحضارية الحاسمة التي شكلت منعطف التحول كالفترة التي كانت قبل "دانتي" أي بل القرن الثالث عشر عندما ظهر الشعر الأوربي الغزلي الفروسي الذي كسر تقاليد العصر الوسيط ومفاهيم الكنيسة واتجه نحو النزعة المادية والعلمانية مثل شعر "جوفر" وشعر "برنار" وفلسفة "أبلار" (1079-1184م)، وهناك من اعتبر فكر "دانتي" الذي ظهر في القرن الثالث عشر (1265-1321م) هو الذي أقلب مفاهيم العصر الوسيط، لأنه اعتمد في كتاباته الأدبية –ولأول مرة- على اللغة الإ يطالية وركز فيها على إحياء الأمة، إضافة على أعماله الشهيرة الأخرى (الكوميديا الإلهية مثلا) التي خرجت عن المألوف في الكتابة، مثلت أولى المدارس الأدبية والفلسفية في لإيطاليا. في حين رأى آخرون بأن النهضة بدأت بظهور منهج العالم الإنجليزي (روجر بيكون) (1214-1294م) صاحب مدرسة البحث العلمي والطريقة التجريبية العلمية التي فتحت الآفاق واسعة نحو إحياء العلوم وظهور أبحاث علمية هامة.()

وقد رفض المؤرخون ربط عصر مهم كالنّهضة بحدث معين، ذلك أن هذه المرحلة في نظرهم ظهرت في إطار تحول تدريجي عام مسّ أوروبا منذ القرن الثاني عشر، يقول مؤرخ العصر الوسيط الأوربي،سعيد عبد الفتاح عاشور: "إنه من التعسف أن نضع فواصل تاريخية معينة بين عصر وآخر لأن التطور التاريخي يأتي تدريجيا دون أن يخضع لحدث معين أو يتحدد بيوم أو سنة أو قرن وكل ما هناك توجد فترة انتقال زمنية بين كل عصر وآخر من عصور التاريخ.....وعصر النهضة هو الذي يمثل فترة الانتقال من العصور الوسطى على العصور الحديثة. ()

إن العصر الحديث الذي ولدت فيه النهضة لم يحدث فجأة، بل كان في شكل عملية تطورات تاريخية دامت أكثر من قرنين، وأن هذه العملية لم تعتمد على حدث معين ولا دافع سياسي أو اقتصادي أو ثقافي أو اجتماعي، كما يذهب إلى ذلك البعض في حادثة سقوط القسطنطينية (1453م) أو اكتشاف كلومبس لأمريكا (1492م)، ولهذين التاريخين أهميتها ولكن دون أن ننسى مراحل التحول التدريجي التي لم تعتمد على حدث واحد معين. ()

خلاصة القول إن العصور الوسطى-كما يقول البعض- "فسحت تدريجيا الطريق لظهور أوروبا الحديثة وذلك ما بين 1300- 1500م وتداخلت العصور الوسطى خلال هذه الفترة مع فترة التاريخ الأوربي الحديث المعروفة بعصر النهضة".()

عوامل قيام النّهضة الأوربية:

ظهرت النهضة الأوربية نتيجة تضافر مجموعة من العوامل لاحت في الأفق منذ نهاية العصر الوسيط، عبّدت الطريق نحو ظهور عصر جديد يختلف في مظاهره الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية عن المظاهر التي سادت في أوربا خلال الفترة الوسيطة ومن أهم هذه العوامل:

1- أثر الحضارة العربية الإسلامية:

احتك الأوروبيون بالحضارة العربية الإسلامية وتواصلوا مع المسلمين عبر قنوات عديدة أهمها: الأندلس وصقلية والمشرق العربي والحروب الصليبية (1096-1198م)، وعلينا أن نعترف بدور الحروب الصليبية في هذا المجال، بدليل أن مظاهر النهضة الأوربية لم تظهر في الواقع إلا ً في أعقاب العصر الصليبي، فرغم فشل أوروبا عسكريا في هذه الحروب، إلا أنها استفادت منها حضاريا عن طريق الاحتكاك بحضارة المسلمين، فتغيرت نظرة الأوربيين تجاه كثير من المفاهيم الاجتماعية (العدالة الاجتماعية) والاقتصادية (حرية التملك) والسياسية (الحرية المساواة، العدل) والفكرية (حرية الفكر وروح البحث) فظهرت مفاهيم جديدة أدت إلى ظهور عصر النّهضة()ولنضرب مثلا على هذا التأثير في الجانب السياسي؛ نجد تغير نظرة الشعب الأوربي إلى النظام الملكي، فقد تبدلت وأصبح يرى فيه انه رئيسا للحكومة عوضا أنه رئيسا للإقطاع أدى به على مطالبة السلطة الملكية بتحديد صلاحياتها، توج بظهور المجالس (البرلمانات) فبدأت تزول فكرة أوروبا واحدة (العالمية) ()وفي المجال الاقتصادي فإننا كما نعلم أنّ الحروب الصليبية وفرت رخاء ماديا استفادت منه النهضة في خدمة الثقافة والفن وتنشيط الاقتصاد.()

وفضلا عن هذه المباهج التي عرفتها أوروبا عن طريق الحروب الصليبية، فإن لحضارة العربية الإسلامية وصلت إلى البلاد الأوربية منذ القرن الحادي عشر ميلادي عبر مراكز إشعاع حضاري ثلاثة هي: الأندلس، صقلية ، والمشرق العربي()، وكما نعلم أن العالم العربي الإسلامي كان في ازدهار علمي عندما كانت أوروبا في ظلمات الجهل، تطورت فيه مختلف العلوم؛ كالفلك والرياضيات والطب، واطلع العرب واستفادوا من الرصيد الفكري للحضارة اليونانية من خلال عملية الترجمة والاعتماد على الفلسفة اليونانية في الجدل والنقاش.

لقد دام حكم العرب في صقلية مدة تزيد عن قرنين ونصف القرن نقلوا مباهج الحضارة الإسلامية، وغدت المنطقة من أهم الروافد الحضارية، ورغم حكم النورمان، فإنهم تأثروا بحضارتها وحافظوا على صبغتها العربية، أمّا الأندلس التي حكمها العرب ثمانية قرون، غدت في ذلك الوقت منارة علمية وثقافية واشتهرت بالفلسفة و الطب والرياضيات والأدب والشعر()وكانت ملتقى للطلاب المسيحيين والمسلمين الذين نهلوا من أكبر مراكزها الحضارية العلمية (طليلة)، وكان من نتائج ذلك تخلص الأوربيين من الفكر التقليدي الذي فرضته الكنيسة، أدّى إلى تحرر العقل الأوربي من الجمود والتقليد الذي ظل السمة الغالبة في العصر الوسيط. ()وظهر أثر الحضارة العربية الإسلامية واضحا على الغرب الأوربي في مجال الأدب والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافيا و الفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة.()

وجدير بالذكر أن نشير هنا إلى التأثير العلمي العربي من خلال أعمال قامات علمية نقلت أعمالها إلى أوربا بشتى اللغات، منها كتب جابر بن جبان (702-756م) في الطب والكيمياء، وجداول الخوارزمي (780-850م) في حساب المثلثات،()وكتاب الفرغاني في الفلك (860م) الذي بقيت تعتمد عليه أوروبا لفترة طويلة، وأعمال ثابت بن قرة (826-901م) في الطب والفلك، ودراسات البيروني (973-1048م) الفلسفية والتاريخية و الجغرافية واللغوية والرياضية والفلكية والطبيعية، وبحوث ابن الطفيل (1107-1185م) الطبية، وفلسفة ابن رشد (1127-1198م) التي كان لهم عظيم الأثر على العقل الأوربي، وعالم النبات ابن البيطار (المتوفي سنة 1248م) وكتابه "الأدوية"، ودراسات ابن النفيس (المتوفي سنة 1288م) الطبية() الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى() ، وكتابات المسعودي وابن حوقل والإدريسي في الجغرافيا. ()ونقل اليهودي الإسباني "إبراهيم بن عزرا" كتب العرب في الرياضيات إلى اللاتينية ووضح للأوربيين نظام الأعداد العربي الذي يرجع إلى الأصل الهندي والأرقام التسعة واستعمال الصفر، هذا النظام الذي أدّى إلى ثورة في الحساب وتطورت على إثره الرياضيات.()وقد أدّى هذا الإطلاع إلى تعرف الأوربيين على المنهج العلمي التجريبي (العربي)، الذي سوف يقتدي به علماء أوربا، وبفضله طوروا مختلف العلوم.()

وقد اعترف بعض المؤرخين الأوربيين بهذا الدور الذي لعبته الحضارة العربية الإسلامية، ومن هؤلاء جون هربرت ويلز الذي قال في كتابه موجز تاريخ العالم: "وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للحقائق الذي بدأه الإغريق لأول مرة عاد سيرته الأولى في ثنايا النهضة المدهشة التي نهضها العالم الإسلامي، فالآن دبت الحياة في بذرتي أرسطو ومتحف الإسكندرية اللتين طال العهد على خمودها وإهمال الناس لهما وإذا هما تنبتان من جديد وتأخذان في الإثمار، لقد تم للعرب المسلمين العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة في التقدم فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها اليوم واستعملت علامة الصفر لأول مرة، ولا يخفى أن اسم "الجبر" نفسه لفظ عربي وكذلك "كيمياء" ثم إن أسماء نجوم كنجم "الغول" و"الديران" و"العواد" تحتفظ بذكرى فتوح العرب في أطباق السماء، وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحي كافة....ولا شك أنهم وفقوا (المسلمون) إلى مستنبطات في المعادن والتطبيق الفني كثيرة ولها قيمة قصوى، فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ و التقطير والعطور وزجاج العدسات".()

وفعلا فإن العلماء العرب والمسلمين كانوا من أعظم علماء العالم وفلاسفته في منتصف العصر الوسيط من خلا لهم تمكن الأوربيون استعادة تراثهم اليوناني الذي ترجم إلى اللغة العربية بمساعدة العلماء اليونانيين و الطوائف الشرقية في سوريا في القرن الثامن وانتقل إلى الأندلس في حوالي نهاية القرن التاسع، ممثلة خاصة في كتابات أرسطو، وكانت قرطبة في القرن العاشر ميلادي قد حققت تقدما ونجاحا في البحث والعلوم()فنهل طلاب العلم في أوربا الغربية منها ومن باقي الحواضر الإسلامية المجاوزة في صقلية والمشرق، وكان ثمار ذلك التواصل الحضاري الذي بدأ منذ نهاية القرن الحادي عشر ميلادي ظهور عصر جديد في مجال الثقافة والعلوم والاقتصاد والاجتماع والسياسة يختلف عن العصر الوسيط الأوربي. ()

2- ظهور المدن:

كانت أولى المدن التي ظهرت بأوربا في إيطاليا بين 1050و1200م ميلادي، كالبندقية وفلورنسا وجنوة، وقد ازدهرت بسبب نمو التجارة والصناعة البسيطة، جعل الفرد يفر من الزراعة إلى وظائف اقتصادية أخرى وفرتها المدينة، التي أصبحت تعج بحركة رؤوس الأموال والنشاط التجاري وشتى المهن والحرف، أدّى ذلك إلى فقدان الطبقة النبيلة أهميتها، وكان هذا إيذانا بتفسخ نظام الإقطاع.

ونظرا لنشاطها الاقتصادي وكثافتها السكانية، حدث نوع من التواصل الاجتماعي، وتم التخلي عن كثير من الحواجز والقيود التي فرضها النظام الإقطاعي فظهر أسلوب اجتماعي جديد يختلف عما كان عليه في العصر الوسيط.()

3- إنتقال بعض علماء القسطنطينية إلى إيطاليا:

بعد فتح القسطنطينية عام على يد العثمانيين عام 1453م حدثت هجرة كبيرة من علماء هذه المدينة إلى إيطاليا حاملين معهم التراث الإغريقي (كتب، تماثيل، أدوات قديمة....) وتعاونوا مع علما إيطاليا على بعث الحضارة اللاتينية واليونانية في قالب جديد، ومن أبرز هؤلاء العلماء، مانويل كريز لوراس الذي جاء من القسطنطينية وحاضر في جامعات فلورنسا وميلان بين 1397-1400م، والعالم بساريون الذي جمع ستمائة وثيقة ونقلها إلى إيطاليا.()والعالمين الإنسانيين "جورج الطرابزوني" و"ثيودور غازا" اللذين حاضرا في مختلف الأكاديميات الإيطالية، وقد لعبا دورا في نشر الثقافة اليونانية.()

4- اختراع الطباعة:

كان ذلك على يد حنا جونتبرج الألماني 1454م وما صاحب هذا الاختراع من قيام حركة واسعة تهتم بطبع الكتب النادرة والمخطوطات القديمة التي أصبحت في متناول الجميع() وأدت كذلك إلى انتشار الإنتاج العلمي والأدبي والحصول عليه بأثمان زهيدة.()

5- انحلال البابوية وضعف الكنيسة:

أصبح فساد الكنيسة واضحا للعيان باستغلال الباباوات نفوذهم الديني لخدمة مصالحهم وعيشهم حياة البذخ

والترف، فانحرفوا عن واجبهم الديني، تعداه إلى محاربة العلم والعلماء بالوقوف في وجه الدراسات العلمية التي تخالف أفكارهم، وقد هيمنت الكنيسة طيلة العصر الوسيط على الحياة الفكرية والدينية والثقافية، هذا أدى إلى ظهور فئة مثقفة أخذت على عاتقها مهمة إصلاح هذا الوضع.()

6- ظهور المفكرين:

الذين كانوا يعرفون بالعلماء الإنسانيين الذين كانوا متحررين من القيود القديمة، فقاموا بإحياء التراث اليوناني والروماني()واستفادوا منه في نقد الأوضاع الثقافية والسياسية والدينية، فأحدثوا ثورة على المفاهيم التي كانت سائدة في العصر الوسيط، ومن أبرز هؤلاء: دانتي، بترارك، بوكاشيو، دافنشي، رفاييل، إراسموس، ميكافيلي.()

7- الاستقرار السياسي والسلام:

فقد هدأ الصراع السياسي في أوربا، أدّى إلى الاتصال الحضاري بين مختلف الدول الأوربية وأقبل الحكام على تشجيع الثقافة والمعرفة. ()

تفسير أسبقية إيطاليا في عملية النّهضة:

ولدت النهضة الأوربية من رحم المدن الإيطالية وبقيت هذه المدن تنعم بالمظاهر الحضارية النهضوية الجديدة لفترة زمنية قبل أن تنتقل إلى باقي دول أوربا الغربية، فما هي العوامل والظروف التي جعلت إيطاليا سباقة للنهضة قبل غيرها من الدول الأوربية؟.

تحتل إيطاليا موقعا جغرافيا استراتيجيا، فهو قريب من العالم الإسلامي وإفريقيا وجنوب شرق آسيا()يمثل همزة وصل بين أوربا والشرق المتوسط ومركزا للنشاط الاقتصادي وحلقة تجارية بين الشرق وأوربا هذا وفّر لإ يطاليا رخاء اقتصاديا كبيرا()منذ القرن الحادي عشر نتيجة احتكارها التجارة الشرقية بعد الحروب الصليبية أدى إلى ظهور الرأسمالية في المدن الإيطالية التجارية وتولى الحكم في هذه المدن رجال من أصحاب النفوذ، وظهرت الطبقة الوسطى()وكل هذا التطور الاقتصادي وفّر مجالا للنهضة.

هذا دون أن ننسى ظاهرة الاستقرار والسلام الذي كان يعم ربوع الإمارات الإيطالية، كما أن إيطاليا هي مهد الحضارة الرومانية وفّر لها خاصية القابلية للقيام بالنهضة، ما أثار في النفوس الهمم وقوى العزائم على إحياء الماضي الحضاري، إضافة إلى ما تحتويه المدن الإيطالية من ماضي فني روماني عريق وفّر لإيطاليا بنية في مجال الفن استفادت منه وطورته خلال عصر النهضة. ()

هذا فضلا عن ما تحتويه إيطاليا من مخطوطات رومانية قديمة، جعلت الإيطاليين يقبلون على دراستها فأثرت في فكرهم وأدبهم، وفي المدن الإيطالية ظهرت حكومات راشدة مستنيرة شجعت الأدب والفن والعلوم مثل أسرة مديتشي (فلورنسا) وأسرة فيسكونتي (ميلانو) وأسرة بورجيا (حكمت أملاك البابوية). ()

وقد تنافست هذه الأسر فيما بينها على إنشاء المجامع العلمية والأكاديميات التي ساهمت في نشر الدراسات الإ غريقية واللاتينية في إطار حلقات بحث تدرس من خلال المحاضرات والمناقشات العلمية الموضوعية العميقة يشترك فيها الأساتذة والطلاب وكانت أقرب ما تكون إلى الجامعة في المضمون العلمين ومن أبرز هذه الأ كاديميات: أكاديمية أفلاطون في فلورنسا التي كانت من أشهر الأكاديميات في إيطاليا، وأكاديمية روما للدراسات التاريخية، وأكاديمية نابولي المختصة في دراسة الآداب، والأكاديمية الجديدة في البندقية، كما تنافست المدن الإيطالية في إنشاء المكتبات باقتناء أنفس الكتب والمخطوطات التي كانت البندقية مثالا لها، وكذلك مكتبة الفاتيكان التي أوجدها البابا نيكولا استطاعت جمع حوالي 12 ألف مجلد. ()

وبذكر الفاتيكان فإن إيطاليا كما نعلم كانت مقرا للبابوية، جعل الايطاليين يشعرون بالزعامة الدينية على العالم المسيحي، فكانت الأموال تتدفق على البابوية، وكان الباباوات ينفقون بعض المال على الأكاديميات وجمع الكنوز النفيسة وتجميل المدن، بل ذهب البابوات ينافسون الأمراء في تشجيع الآداب والفنون وجمع المخطوطات، حتى أطلق على هؤلاء المشجعين اسم "باباوات النّهضة" مثل البابا نيكولا الخامس (1447-1455م)، والبابا ليو العاشر (1513-1521م) الذي أنشأ كنيسة القديس بطرس. ()

كما أن إيطاليا كانت قريبة جدّا من أهم الحواضر الإسلامية (الأندلس، صقلية، المشرق العربي) وعلى اتصال وثيق بالقسطنطينية جعلها تلعب دورا كبيرا في التواصل الحضاري مع القسطنطينية أو مع مراكز الحضارة الإسلامية فكانت مدنها مركزا لالتقاء العلماء المنتقلين والزائرين (من القسطنطينية) وكذا انتقال طلبتها إلى هذه المراكز العلمية القريبة لنقل العلوم، يضاف إلى هذا كله طبيعة الشعب الإيطالي الذي يميل إلى الحياة الفنية و المرح والرقص وحب المغامرة وكذا حب الحياة والجمال والإبداع وروح التذوق، فتفتقت هذه المواهب بعد أن وجدت الدعم المادي نتيجة إزدهار النشاط الاقتصادي في مختلف المدن الإيطالية.()

خلاصة:

بناء على ما سبق نقول إن النّهضة الأوربية هي تلك الحركة الفكرية التجديدية التي ظهرت ملامحها الأولى في إيطاليا منذ القرن الحادي عشر وتبلورت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وقد ظهرت بسبب التغيرات الجديدة التي عرفتها المنطقة أبرزها الاتصال الحضاري بالعالم الإسلامي وتطور النشاط التجاري ونمو المدن ما وفّر رخاء اقتصاديا ونموا فكريا وثقافيا وفنيا وعلميا في المدن الإيطالية التي كانت السبّاقة للنهضة.